تفسير إبن كثير

لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ

(لا يسمعون حسيسها) أي : حريقها في الأجساد .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أبيه ، عن الجريري ، عن أبي عثمان : (لا يسمعون حسيسها) ، قال : حيات على الصراط تلسعهم ، فإذا لسعتهم قال : حس حس .وقوله : (وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون) فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب .قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي سريج ، حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني ، عن ليث بن أبي سليم ، عن ابن عم النعمان بن بشير ، عن النعمان بن بشير قال - وسمر مع علي ذات ليلة ، فقرأ : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) قال : أنا منهم ، وعمر منهم ، وعثمان منهم ، والزبير منهم ، وطلحة منهم ، وعبد الرحمن منهم - أو قال : سعد منهم - قال : وأقيمت الصلاة فقام ، وأظنه يجر ثوبه ، وهو يقول : (لا يسمعون حسيسها) .وقال شعبة ، عن أبي بشر ، عن يوسف المكي ، عن محمد بن حاطب قال :

سمعت عليا يقول في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال : عثمان وأصحابه .ورواه ابن أبي حاتم أيضا ، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد - وليس بابن ماهك - عن محمد بن حاطب ، عن علي ، فذكره ولفظه : عثمان منهم .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) : فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرا هو أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثيا .فهذا مطابق لما ذكرناه ، وقال آخرون : بل نزلت استثناء من المعبودين ، وخرج منهم عزير والمسيح ، كما قال حجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ، ثم استثنى فقال : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) فيقال : هم الملائكة ، وعيسى ، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل . وكذا قال عكرمة ، والحسن ، وابن جريج .وقال الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال : نزلت في عيسى ابن مريم وعزير ، عليهما السلام .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسين بن عيسى بن ميسرة ، حدثنا أبو زهير ، حدثنا سعد بن طريف ، عن الأصبغ ، عن علي في

قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى) قال : كل شيء يعبد من دون االله في النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم . إسناده ضعيف .وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (أولئك عنها مبعدون) ، قال : عيسى ، وعزير ، والملائكة .وقال الضحاك : عيسى ، ومريم ، والملائكة ، والشمس ، والقمر . وكذا روي عن سعيد بن جبير ، وأبي صالح وغير واحد .وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثا غريبا جدا ، فقال : حدثنا الفضل بن يعقوب الرخاني ، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك ، حدثنا الليث بن أبي سليم ، عن مغيث ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى االله عليه وسلم في قوله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) قال : عيسى ، وعزير ، والملائكة .وذكر بعضهم قصة ابن الزبعرى ومناظرة المشركين ، قال أبو بكر ابن مردويه :حدثنا محمد بن علي بن سهل ، حدثنا محمد بن حسن الأنماطي ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة ، حدثنا يزيد بن أبي حكيم ، حدثنا الحكم - يعني : ابن أبان - عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : جاء عبد االله بن الزبعرى إلى النبي صلى االله عليه وسلم فقال : تزعم أن االله أنزل عليك هذه الآية : (إنكم وما تعبدون من دون االله حصب جهنم أنتم لها واردون) ، فقال ابن

الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة ، وعزير وعيسى ابن مريم ، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فنزلت : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) ، ثم نزلت : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) . رواه الحافظ أبو عبد الله في كتابه " الأحاديث المختارة " .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا قبيصة بن عقبة ، حدثنا سفيان - يعني : الثوري - عن الأعمش ، عن أصحابه ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) قال المشركون : فالملائكة وعزير ، وعيسى يعبدون من دون الله؟ فنزلت : (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) ، الآلهة التي يعبدون ، (وكل فيها خالدون) .وروي عن أبي كدينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مثل ذلك ، وقال فنزلت : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) .وقال [الإمام] محمد بن إسحاق بن يسار ، رحمه الله ، في كتاب " السيرة " : وجلس رسول الله - فيما بلغني - يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المسجد غير واحد من رجال

قريش ، فتكلم رسول االله صلى االله عليه وسلم فعرض له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول االله صلى االله عليه وسلم حتى أفحمه ، وتلا عليه وعليهم (إنكم وما تعبدون من دون االله حصب جهنم أنتم لها واردون) إلى قوله : (وهم فيها لا يسمعون) ، ثم قام رسول االله صلى االله عليه وسلم ، وأقبل عبد االله بن الزبعرى السهمي حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة لعبد االله بن الزبعرى : واالله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا ولا قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال عبد االله بن الزبعرى : أما واالله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا : كل ما يعبد من دون االله في جهنم مع من عبده ، فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم ؟ فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس ، من قول عبد االله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم .فذكر ذلك لرسول االله صلى االله عليه وسلم ، فقال : " كل من أحب أن يعبد من دون االله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته . وأنزل االله : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون) أي : عيسى وعزير ومن عبدوا من

الأحبار والرهبان ، الذين مضوا على طاعة االله ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون االله . ونزل فيما يذكرون ، أنهم يعبدون الملائكة ، وأنهم بنات االله : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) إلى قوله : (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) [الأنبياء : 26 - 29] ، ونزل فيما ذكر من أمر عيسى ، وأنه يعبد من دون االله ، وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته : (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها) [الزخرف : 57 - 61] أي : ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام ، فكفى به دليلا على علم الساعة ، يقول : (فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم) [الزخرف : 61] .وهذا الذي قاله ابن الزبعرى خطأ كبير; لأن الآية إنما نزلت خطابا لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل ، ليكون ذلك تقريعا وتوبيخا لعابديها; ولهذا قال : (إنكم وما تعبدون من

دون االله حصب جهنم) فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ، ممن له عمل صالح ، ولم يرض بعبادة من عبده . وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن " ما " لما لا يعقل عند العرب .وقد أسلم عبد االله بن الزبعرى بعد ذلك ، وكان من الشعراء المشهورين . وكان يهاجي المسلمين أولا ثم قال معتذرا :يا رسول المليك ، إن لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور إذ أجاري الشيطان في سنن الغيومن مال ميله مثبور